ISSN: 1112-7872
E-ISSN: 2600-6162
ص.ص 215 - 231

الماء والأرض والمرأة ودلالات الخصوبة من خلال طقوس الاستمطار

رزايقية فاطمة[1]، بن معمر بوخضرة[2]

1ـ ط.د، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة تلمسان أبي بكر بلقايد
fz68207@gmail.com
2ـ كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية ، جامعة تلمسان أبي بكر بلقايد
boukhadra13@yahoo.fr
تاريخ الإرسال:2019/02/16؛ تاريخ القبول:2019/03/17

Water, land, women and Fertility semantics through ritual rainfall

REZAIGUIA Fatma; BENMAAMAR Boukhadra

Abstract:

Most legends of human societies refer to the origin of the universe, life, and all creatures to water, as expressed in the forms and forms of ritual since ancient times, and became popular beliefs and legacies related to water, prepare by drought and scarcity of rainfall. And if different ways of performance and how to exercise, the end behind one, where it is translated as a substantive content on the subject of fertility and life, through the meeting of elements of fertility and production in most of these rituals, such as water, land and women, where the popular imagination about this with a set of symbols of the ritual rainfall and the representations of the relationship of water, land and women through the meanings of fertility and production and life. Our theme is "water, earth, woman and fertility signs through the ritual of rainfall" to reveal the symbolism of the elements in the popular imagination, which we monitored through our

ISSN: 1112-7872
E-ISSN: 2600-6162
ص.ص 215 - 231

dealings with the field and tried to classify them to reveal the relationship between these elements eloquently symbolized, and the questioning of the indications of fertility through the rites of the survey in the study area, rituals play the role of mediation between the earthly time and holy time, which is confined to the practice of rituals of communication water and its manifestations with the forces of nature and the embodiment of images in a human and feminine, especially, water carries the symbol of fertility as women, the presence of women and land in the rites of riveting has many Significance in popular culture and popular imagination because the principle of fertility in the land is the same principle of fertility in women, the land, such as first woman's womb is fertilized with rain water and produce fruit, and the second with the man's sperm who gives birth to children.

Keywords: water; land; women; the popular imagination; ritual rainfall.

الملخص:

ترجع أغلب أساطير المجتمعات البشرية أصل الكون والحياة وجميع المخلوقات إلى الماء، إذ تعبر عنها داخل قوالب وأشكال طقوسية منذ القدم، وأصبحت من المعتقدات والموروثات الشعبية المتصلة بالماء، تحضر بحلول الجفاف وندرة الأمطار. وهي وان اختلفت طرق أدائها وكيفية ممارستها فإن الغاية من ورائها واحدة، حيث تترجم كمضامين دالة على موضوع الخصوبة والحياة، من خلال اجتماع عناصر الخصوبة والإنتاج في أغلب هته الطقوس كالماء والأرض والمرأة، حيث عبر المخيال الشعبي عن هذا بجملة من الرموز المشكلة لطقوس الاستمطار والتمثلات الدالة عن علاقة الماء والأرض والمرأة من خلال معاني الخصوبة والإنتاج والحياة. ويأتي موضوعنا «الماء والأرض والمرأة ودلالات الخصوبة من خلال طقوس الاستمطار» للكشف عن رمزية هته العناصر في المخيال الشعبي، التي رصدناها من خلال تعاملنا

ISSN: 1112-7872
E-ISSN: 2600-6162
ص.ص 215 - 231

مع الميدان وحاولنا تصنيفها لنكشف عن العلاقة التي تربط هته العناصر ببلاغة رمزيتها، واستنطاق دلالات الخصوبة من خلال طقوس الاستمطار في منطقة الدراسة، فالطقوس تلعب دور الوساطة بين الزمن الدنيوي والزمن القدسي الذي ينحصر أثناء ممارسة الطقوس التواصلية للماء وتجلياتها مع قوى الطبيعة وتجسيد صورها بشكل ادمي أنثوي خصوصا، فالمياه حاملة لرمز الخصوبة كالمرأة، فحضور المرأة والأرض في طقوس الاستمطار له من الدلالات ماله في الثقافة الشعبية والمخيال الشعبي لأن مبدأ الخصوبة في الأرض هو نفسه مبدأ الخصوبة عند المرأة فالأرض مثل رحم المرأة الأولى تخصب بماء المطر فتنتج ثمرا، والثانية بمني الرجل فنجب أطفالا.

الكلمات المفتاحية: الماء؛ الأرض؛ المرأة؛ المخيال الشعبي؛ طقوس الاستمطار.

مقدمة:

لم يكن الانشغال بموضوعات الماء، الأرض، المرأة جديدا في مسار التاريخ الإنساني إذ أننا نجدها تشغل حيزا من البحث والتفكير في أزمنة موغلة في القدم، حيث كان لها نصيب في أساطير ما قبل التاريخ. إذ نجد لها حضورا خصبا وبكرا في مجتمعنا، ويحتل كل عنصر من هذه العناصر ـ الماء والأرض والمرأة ـ قيمة دلالية وبعدا رمزيا في المخيال الشعبي للمنطقة، وقد تبدو للوهلة الأولى متباعدة متنافرة، إلا أن المتأمل فيها بنظرة أنثروبولوجية عميقة يدرك مدى ترابطها وحضورها مجتمعة في الكثير من مظاهر المخيال الشعبي، فنسجت حولها الكثير من الاعتقادات والتصورات حصيلة تراكمات وموروثات تركها الماضي في ذهنية أفراد المجتمع والتي تضرب بجذورها في أعماق أبنية أسطورية، دينية وشعبية، انتقلت بالتوارث من جيل إلى جيل، لتعيش معنا وتتوالد تحت تأثير مخيال

ISSN: 1112-7872
E-ISSN: 2600-6162
ص.ص 215 - 231

شعبي يمتزج بألوان الثقافة الشعبية للمنطقة والتي تترجمها جملة من أشكال التعبير الشعبي،خاصة فيما حاولنا تسليط الضوء عليه بالملاحظة والتحليل، كطقوس الاستمطار، على اعتبار أنها من بين أهم العناصر الثقافية تجسيدا لعلاقة الماء والأرض والمرأة، في فكرة الخصوبة. وقد كانت طقوس الاستمطار معروفة في شمال إفريقيا بمختلف أنحائها حتى وان اختلفت تفاصيل أدائها فإن هدفها واحد وهي طلب نزول المطر، وممارسات تعبدية تقع بين الخوف والرجاء حين تكون الأرض والمحاصيل مهددة بالتلف وشح المياه، من خلال هته الطقوس الاحتفالية في ظاهرها نود البحث في دلالات الخصوبة وعلاقة الماء والأرض والمرأة فيها، حيث حاولنا من خلالها رصد تمثلات هذه العناصر منفردة/ مجتمعة في ذهنية أفراد مجتمع البحث، لفهم البنية الرمزية التي أنتجتها ثقافة المجتمع حول الماء والأرض والمرأة، وكذا الحفر في الخلفيات المشكلة للمخيال الشعبي حولها.

واعتمدنا المنهج الاثنوغرافي لجمع المعطيات الاثنوغرافية خاصة في وصف طقوس الاستمطار والممارسات المحيطة بها عن طريق المقابلة لجمع معطياتنا، وكانت منطقة حمام النبائل بقالمة مجتمع بحث دراستنا.

نسعى من خلال هذا المقال للإجابة على مجموعة أسئلة: ما هي القيمة الرمزية التي يحملها الماء والأرض والمرأة في طقوس الاستمطار؟، وكيف عبرت عن فكرة الخصوبة؟ وما السبيل لفهم العلاقة بينها من خلال طقوس الاستمطار؟ وما هي الخلفيات الأنثربولوجية المشكلة للمنظومة

ISSN: 1112-7872
E-ISSN: 2600-6162
ص.ص 215 - 231

الرمزية المتحكمة في المخيال الشعبي حول الماء والأرض والمرأة في مثل هته الطقوس؟

طقس القايمة:

القايمة طقس انثربولوجي بامتياز مليء بالدلالات والرموز، وهو من الطقوس المتوارثة لدى سكان منطقة الدراسة، فعندما يدوم الجفاف إلى الحد الذي يبدأ بتهديد المزروعات، ويجعلها في خطر، تجتمع النسوة في بيت العجوز الأكبر سنا في المنطقة، فالمرأة المسنة في المخيال الشعبي تجسد البركة والطهارة لخلوها من دم الحيض والشهوات الجنسية، وتكون المبادرة الفعلية في التحضير لهذا الطقس متعلق بالمرأة أساسا، فيبدأ هذا الطقس بعقد النية حيث تنوي كل الحاضرات في سرهن أداء طقس عروس المطر «القايمة» كما يطلق عليها مجتمع الدراسة، أو «بوغنجة» و«تلا غنجة» تسمى في مناطق أخرى، و«غنجة» تعني الملعقة ونجد في منطقة الدراسة يطلق اسم «الغنجاية» على الملعقة. ويشترط حضور الأطفال في هذا الطقس فهم يحملون دلالة النية الصافية، فتنزع العجوز أغطية رأسها زاهية الألوان، وتقوم بربطها بملعقة كبيرة أو كما تسمى محليا «مغرف الزقو»، حيث ترمز أغطية رأس العجوز «المحارم محليا» إلى اكتساء الأرض بمختلف الإعشاب والزهور، أما «مغرف الزقو»، فهي ترمز إلى جوع سكان المنطقة كما تحمل دلالة المياه الغزيرة لأنها مخصصة لحمل كمية كبيرة من المرق، ومنهم من يفسرها على أن شكل مقدمة الملعقة يشبه اليد المفتوحة في تضرعها ودعائها للمولى عز وجل، ويعبر عن هذا الاثنولوجي «ايميل لاووست Emile Laoust من خلال

ISSN: 1112-7872
E-ISSN: 2600-6162
ص.ص 215 - 231

تعرضه للإسقاطات الدلالية والحمولة الرمزية التي تربط بين المغرفة وعروس المطر، التي يطوفون بها لنزول المطر من طرف اله الخصب والمطر، وهذا حسب الأسطورة المشكلة لهذا الطقس الاستمطاري، يؤكد بذلك استباق العنصر الثقافي عن العنصر الديني» (حنان حمودا، 2016: 143)، وعند الانتهاء من صنع عروس المطر، ترفعها صبية عذراء، بيدها اليمنى تلوح بها إلى السماء، يتبعها صبية صغار ويسير الجميع في موكب بهيج وهم يرددون بعض الأهازيج المتناغمة والموزونة في شكل أسلوب تضرعي، حيث يقول محمد الجويلي: «بأن أناشيد الاستمطار تحمل معاني الحياة والتغيير» (محمد الجويلي، 2016: 12).فهي مشحونة بالكثير من الدلالات الأنثربولوجية، إذ يردد الصبية:

القايمة القايمة ...القايمة لبست لخضر واللون الزاهي
القايمة القايمة ... جات تتبختر ولحين حن علينا
القايمة القايمة ...القايمة لبست جلالة والعام كاد الرجالة
مطارة قطارة تملي عروق العرعارة
النو صبي صبي بنت النبي طلبت ربي

وأيضا: «بوغنجة حرك راسك يا ربي اروي ناسك ، بوغنجة يلعب يا رب صب علينا الماء، بوغنجا يلعب يا رب نشبع ماء»، وعند وصول الأطفال إلى كل بيت ، على أهله أن يقوموا برشهم بالماء ، يتم ذلك في جو من الفرح الممزوج بضحك الأطفال يمنحهم أهل البيت الخضر والدقيق فيجمعونها في قفة، وبمجرد الانتهاء من أخر بيت يبدأ المطر بالهطول، ليعودوا بها إلى البيت الذي انطلقوا منه فتقوم النسوة هناك

ISSN: 1112-7872
E-ISSN: 2600-6162
ص.ص 215 - 231

بتحضير الطعام المتمثل في طبق الكسكس، مما جمعه الأطفال ويتم تحريكه في القدر بواسطة «مغرف الزقو» التي استعملت في الطقس، يجتمع الأطفال حوله سعداء يأكلون من الطبق كما يأكلون منه اليتامى والمارة. ففي الكثير من الأحيان تكون الأمطار غزيرة بعد هذا الطقس متبوعة بالبرد، يقام في هته الأثناء طقس عكسي، حيث تقوم النسوة بالزغاريد وطحن كمية من البرد في المهراس، طلبا واستنجادا بالمولى لتجفيف الأرض وتوقف المطر، عندما يتجاوز حد المنفعة.

إلى جانب هذا الطقس توجد هناك طقوس أخرى غايتها طلب الغيث توارثتها أجيال منطقة الدراسة وتداولوها من خلال إحيائها كلما حل الجفاف، تعرضنا لها من خلال عملنا الميداني، وهي لا تقل أهمية عن سابقتها، إذ أنها لا تستغرق وقتا ولا تتميز بمراحل تحضيرية كثيرة كطقس «القايمة» نذكر منها:

طقس وضع الفليو في الماء:

ويتم هذا الطقس عند احتباس الحرارة وعدم تساقط الأمطار، تذهب صبية أو صبي صغير، يشترط أن يكون خجولا، بأمر من أمه لجلب نبات الفليو، وبعد إحضاره يتم إرساله إلى عجوز كبيرة في المنطقة، لتضع النبتة تبيت في الماء مع دعاء تلك المسنة بأن يمطر الله غيثا نافعا.

فكما نلاحظ أن العناصر الفاعلة في هذا الطقس الاستمطاري، مكونة من، المرأة، الطفل، العجوز، فحضور المرأة في هذا الطقس ليس حضورا فاعلا بل هو حضور إيحائيا رمزيا، يحمل جملة من الرموز والمعاني الدالة على الخصوبة والعطاء، أما عن الطفل والعجوز، فهم رمز للبركة والنية

ISSN: 1112-7872
E-ISSN: 2600-6162
ص.ص 215 - 231

الخالصة من كل درأ. أما النباتات والأشجار فعدة ما تدل وترمز إلى الحياة (فيليب سيرينج، 1992: 286)، وهو ما عرف في أغلب الحضارات الإنسانية تقريبا.

نجد أن هذه الممارسات التي تحيط بالماء والمرتبطة بجملة من الطقوس الدالة على الأرض والزراعة تارة والخصوبة والمقدس تارة أخرى، تشكل جزءا مهما من البنية الاجتماعية لمجتمع الدراسة التي يتم بناؤها وطقسنتها ومن ثم توارثها جيل بعد جيل.

طقس تحزام الكلبة:

يتم هذا الطقس كرد فعل للرياح الحارة أو كما تسمى برياح الشهيلي محليا، وهي رياح قوية، جافة وحارة، عادة ما تكون جنوبية شرقية، تتلف المحاصيل والأشجار ، ويتم هذا الطقس، بأن يقوم يوم الشهيلي أحد أفراد القرية، بربط كلبة من وسطها بالشْريطْ وهو عبارة عن (نبات الديس يقومون بفتله حتى يصبح متينا)، ظنا واعتقادا منهم أن الرياح ستتوقف وينزل الغيث، بمجرد ربط الكلبة لرمزيتها المشؤومة في مخيالهم، مثل شؤم هذه الرياح الضارة، فرمزية الكلب لطالما ظلت عبر الحضارات تدل على الشؤم والرمزيات السلبية، وأنه حيوان غير طاهر (فيليب سيرينج، 75:1992)، فهذا النوع من الرياح إذا ما حل بالمنطقة، توارد إلى خواطر أهلها أنها رياح غضب من الله سلطها عليهم جراء أعمال وأفعال زاغت عن الطريق المستقيم.

ISSN: 1112-7872
E-ISSN: 2600-6162
ص.ص 215 - 231

طقس الزردة وزيارة الأولياء الصالحين:

تقام الزردة أو الوعدة عند مزارات من يعتقد بصلاحهم كالأولياء والمرابطين، ونجدها تقام في وقتان يحدثنا في الخريف وقت الحرث، وفي فصل الربيع، نجد أن الزردة عادة ما ينسب اسمها إلى ولي صالح، أو المكان المدفون فيه ذلك الولي،كما نجد في منطقة الدراسة: زردة عين الشقة، زردة عين الكبيرة، زردة مرابط سعد، زردة مرابط سعيد... «وينسب بعض هذه الأضرحة إلى الأولياء الذين صورهم المعتقد الشعبي على أنهم الواسطة بين الإنسان وخالقه، ومن هذا فإنهم يعترفون له بسلطان فعلي خارق لا يدانيه سلطان ولا تغرب عن قدرته معضلة» (أحمد رشيدي صالح، 2002: 148)، ويتداول أصحاب مجتمع الدراسة الكثير من الحكايات والروايات عن كرامات هؤلاء الأولياء وقدراتهم الخارقة حيث تصل درجة الاعتقاد بهم عند أفراد مجتمع الدراسة إلى درجة الحلف والتبرك بهم، فروح الولي تظل تنتقل بكل حرية في كل مكان، ولقضاء حاجة فعلى الطالب أن يستنجد باسمه، ليتم له ما أراد حسب المعتقد السائد.

ففي يوم معلوم يتم الاتفاق عليه من طرف أهل القرية وكبار عرشها عن اليوم الذي ستقام فيه الزردة، للتبرع لها والتحضير لمستلزماتها، وتتم الزردة بالقرب من قبر الولي الصالح تيمنا لنزول الغيث في موسم الحرث، حيث يحضر الأهالي ما طاب ولذ من الأطعمة كالكسكس باللحم، التمر، الكسرة، الحليب، اللبن.... الخ، ويأكل الحضور، وكذلك المارة والأطفال الصغار...حيثما ظهر أحد أو جماعة تمر بالقرب من مكان

ISSN: 1112-7872
E-ISSN: 2600-6162
ص.ص 215 - 231

الزردة، يقوم أحد الفاعلين فيها بمناداتها بصوت عالي بقوله» أي اربحوا يا رابحين اربحوا اربحوا، الخير ياسر وربي الرازق» أي تعالوا فان الأكل كثير والله هو الرزاق. يتم كل هذا في جو من الدعاء بنزول الغيث النافع في هذا الموسم، إضافة إلى هذا تكون فرقة «الرحابة» حاضرة ، وتكون هذه الفرقة مكونة من ستة أو ثمانية أشخاص يكونوا متقابلين بالتساوي، ثلاثة مقابل ثلاثة وتارة يقتربون وتارة يبتعدون متشابكين بأذرعهم ويضربون أرجلهم على الأرض مرددين بعض الأغاني ومدائح الرسول صلى الله عليه وسلم، بلباس تقليدي متمثل في «الرزة» أو «الشاش»،وهي قطعة من القماش توضع وتُلف على الرأس، وكذلك القندورة وفوقها البرنوس، «الرحابة هي سنفونية جميلة تجمع بين الغناء وحركات الأرجل في انسجام وتناغم رائعين». وفي هذا كله رمزيات دلالية في المخيال الشعبي للمنطقة بأنه من خلال هته الممارسات ينزل الغيث وينسبونه إلى قدرة الولي التي أقيمت عنده الزردة، في وساطته بينهم وبين الله. وأضحت هذه العادات راسخة في نفوس الأجيال وشكلت تراثا شعبيا، يشترك فيه عامة الناس، يطبع سلوكهم وأفعالهم وحياتهم اليومية.

رمزية الماء والأرض والمرأة ودلالات الخصوبة في طقوس الاستمطار:

لقد تعددت طقوس الاستمطار واختلفت تفاصيل ممارستها وإحيائها، إلا أن الجامع بينها هو الهدف من وراء أدائها وهو نزول المطر لإحياء الأرض بعد جفافها، ففي ظاهر هته الطقوس المذكورة سالفا أنها تسعى كلها للظفر بعنصر مقدس لا تستمر الحياة من دونه ألا وهو

ISSN: 1112-7872
E-ISSN: 2600-6162
ص.ص 215 - 231

الماء، غير أن المتأمل فيها يجد أنها أبعد من ذلك بكثير، فهي تجمع بين ما هو عرفي قبلي وما هو ديني تعبدي، لتشكل بذلك أحد أهم مظاهر التنوع الثقافي الذي تتميز به منطقة الدراسة، فتجتمع رمزية الماء والأرض والمرأة في أغلب الطقوس الإستمطارية في المنطقة في تفاصيل وحيثيات هته العادات.

فالسماء عندما تمطر تقوم بإخصاب الأرض وإحيائها عبر التجدد وولادة الزرع والنبات، فطقس «القايمة» الزراعي الأصل، المرتبط بالأرض التي يتم إخصابها، تقوم بولادة الزرع والنبات والأشجار الدالة على الحياة، فتحضر المرأة في هذه الطقوس كفاعل أساسي أو كمنتج للطقس تارة وكرمز مماثل للأرض تارة أخرى، فطلب الغيث يستوجب استحضار شخصية وصورة المرأة وأدوارها النمطية المتعلقة بالخصوبة والإثارة الجنسية، وقد ركز «ايميل لاووست على الموكب المجسد لهذا الطقس الغني بالرموز والدلالات، من خلال تفكيكه المجازي لأهم عناصر ومحددات الفاعلين المشاركين في عملية إحياء هذا الطقس، داخل موكب من النساء والأطفال، المرددين لمجموعة من الأهازيج الأمازيغية القديمة المستعطفة لأنزار أي المطر، والتي تدعوه فيها عروسه إلى النزول، التي تم تهيئتها للطقس، الموجهة نحو السماء والتي تحملها صبية عذراء، تتربع الموكب وتتحكم في سير عملية الطواف، إلا أن هذا التقدم في الطواف لا يستقيم من دون عملية الرش بالماء باتجاه تلك العروس التي تم وهبها للإله أنزار حسب الأسطورة المؤسسة للطقس» (حنان حمودا، 2016: 143).

ISSN: 1112-7872
E-ISSN: 2600-6162
ص.ص 215 - 231

فحضور المرأة والأرض في طقوس الاستمطار له من الدلالات ماله في الثقافة الشعبية والمخيال الشعبي لمنطقة الدراسة «لأن مبدأ الخصوبة في الأرض هو نفسه مبدأ الخصوبة عند المرأة» (إبراهيم الحيدري،2003 :29)

فالأرض مثل رحم المرأة الأولى تخصب بماء المطر فتنتج ثمرا، والثانية بمني الرجل فتنجب أولادا، وقد أشار باخوفن Bachofen إلى العلاقة بين الأرض والماء، «فالماء جزء من الأرض، والأرض تستقبل الماء بصورة شهوانية ليخصبها فتخلق الأحياء... ومثلما قدم الإنسان الأرض، قدس الأنثى، الأم، لأن الأم هي الأرض ـ الأصل، التي تسللت من الرجل الذي ولد منها، ومثلما تشتهي الأرض الولادة، تشتهي الأنثى الخلق، لأنها رمز الخصوبة والعطاء...»(إبراهيم الحيدري، 2003 :34ـ35)

نجد أن طقسي القايمة، ووضع نبات لفليو في الماء متشابهان من حيث الفاعلين في الطقس، ففضلا عن أن كليهما يراد من ورائه نزول المطر، كذلك في كل منهما حضور للمرأة عموما والمسنة على وجه الخصوص وكذا الأطفال الصغار كفاعلين أساسيين في كل من الطقسين، وفي هذا دلالات رمزية في الدمج بين العجائز والأطفال الصغار، لأنهم يرمزون إلى الضعف وعدم القدرة على تحمل العطش والجوع، فهم يمثلون استجابة الدعوة.

أما في طقس تحزام الكلبة ضد رياح الشهيلي، فالهدف نفسه كما في الطقوس السابقة نجد أن المرأة هي من تقوم بمراسيم هذا الطقس، إلا أننا

ISSN: 1112-7872
E-ISSN: 2600-6162
ص.ص 215 - 231

نجد في اختيارهم للكلبة الأنثى وربطها من وسطها لتتوقف هته الرياح المشؤومة، بدلا عن الكلب الذكر فيه دلالة على أن الأنثى تحظى بمكانة اقل درجة من مكانة الذكر سواء في العالم الإنساني بين المرأة والرجل أو العالم الحيواني، ويظهر هذا جليا في مجتمع بحثنا فهم يفضلون المولود الذكر على الأنثى، فتراهم يحزنون إذا كانت بنتا، ويقيمون الحفلات والأفراح إذا جاء ذكرا. وتعبر الكاتبة التونسية خولة الفرشيشي في مقال لها بمجلة المرأة العربية بعنوان «المرأة العربية وسلطة المجتمع الذكوري»، تصف حال المرأة الحامل عند سماعها خبر أنها حامل بأنثى، تقول: «...سرعان ما انتهت فرحة الحامل، تقول في سرها، ليته كان ذكرا ليحمل اسم العائلة، ابني حمال همي وبنتي جلابة همي، فالذكر حظوة العائلة والمجتمع، والأنثى حمل ثقيل لا ينتهي إلا بزواجها أو مماتها... ثم تكمل ولولتها، لما قالوا بنية اتهدت الحيط عليا...» (خولة الفرشيشي، 2018) ، فالمجتمع لا يتناسل ولا يستمر إلا عن طريق المرأة، وفي نفس الوقت يخافها ويردعها ويراقبها ولا يطمئن من زوال خطرها إلا عن طريق زواجها أو موتها. فالذكر يحظى دائما بمعاملة أفضل من الأنثى، نجد هذه المعاملات تنتقل للعالم الحيواني، فكل ما هو ذكر من أصناف الحيوانات يحظى باهتمام أكثر من الأنثى، وهذا ما رصدته ملاحظاتنا خلال عملنا الميداني.

دائما يبقى الهدف واحد في طقوس الاستمطار وهو نزول المطر كما ذكرنا سابقا، فحتى في طقوس الزردة وزيارة الأولياء الصالحين لجعلهم واسطة بينهم وبين الله في نزول المطر إذا ما حل الجفاف بالمنطقة، فبالرغم

ISSN: 1112-7872
E-ISSN: 2600-6162
ص.ص 215 - 231

من تطور الحياة وسيادة العقل العلمي، الذي أدى إلى تراجع أداء الطقوس الاستمطارية السابقة، لم يتخلص سكان مجتمع بحثنا من المزج بين الدين والأسطورة في حياتهم حيث يعتبر «جان كوبان Jane Cubane، أن كل ما هو طقوسي ليس بالضرورة ديني، فالطقوس موجودة وملاحظة، وتتمظهر بشكل رمزي، وهي التي تحدد موقع كل من المقدس والمدنس (حنان حمودا، 2016: 151)، فيعتقد سكان المنطقة أنه إن لم يقيمون «الزردة» قد يؤدي إلى تأخر نزول المطر وزوال البركة. ففضاء الأضرحة بمنطقة حمام النبائل تعتبر فضاءات للتبرك، والانتقال من الزمن الحاضر إلى الزمن الماضي، لنيل تأثير كرامات الأولياء والاستفادة من طاقة الولي في التوسط لتحقيق مبتغاهم، ويتم هذا عبر ممارسة شعائر طقوسية ومنظومات دلالية، «فرموز البركة تبقى مهيمنة على أغلب الممارسات والاحتفالات الزراعية لكونها مرتبطة بنظام من التمثلات الرامزة على قوة حضور الهياكل والخصائص الرمزية الدالة على مواضيع المقدس وصوره وتجلياته» (حنان حمودا، 2016: 152)، فتترجم هذه الاحتفالات في شكل فلكلوري كإقامة الزردة من أجل الاستمطار في منطقة حمام النبائل داخل قوالب من الممارسات الثقافية التقليدية، وهي قريبة من بعض الممارسات ذات المواصفات السحرية الغيبية، فيقام حفلا كسكسيا على وقع تهليلات الرحابة ومدائحهم ودعوات الحاضرين في أن يغيثهم الله غيثا نافعا لإخصاب الأرض، فتبقى الأشكال الاحتفالية تسعى إلى شخصنة المقدس الرمزي داخل مسرح أنثربولوجي وديني

ISSN: 1112-7872
E-ISSN: 2600-6162
ص.ص 215 - 231

شعبي رامزة إلى قيم الخصب والعطاء إذ يشكل فيها الماء العنصر الأساس والمحوري.

فالضريح أو مقام الولي مكان مشترك بين المرأة والفلاح، فتقصده المرأة طلبا للزواج وطلبا في الإنجاب، كما تقصده شكرا وحمدا على الإنجاب إذا تحقق، أو شفاء من مبتلى. كما أن الفلاح يقصده طلبا للمطر واستنجادا لصلاح الأرض والمزروعات، وإذا ما تحقق ذلك يلجأ إليه حامدا شاكرا على الخير الوفير. فالمشترك بين كل هته الممارسات والزيارات واحد وهو السعي من أجل الخصوبة والإنتاج.

تعبر الكاتبة المغربية حنان حمودا على هته لطقوس المائية، بأنها آلية رمزية للعبور عبر الزمن، من العالم الواقعي المادي إلى العالم الغيبي اللامادي المتصل بالتمثلات الدينية حول الفاعل (الله) وصوره (حنان حمودا، 2016: 154). فالطقوس تلعب دور الوساطة ما بين الزمن الدنيوي والزمن القدسي الذي ينحصر أثناء ممارسة الطقوس التواصلية للماء وتجلياتها مع قوى وتجسيد صورها بشكل ادمي أنثوي خصوصا، فالمياه حاملة لرمز الخصوبة كالمرأة.

وحاولنا في الشكل التالي توضيح العلاقة التي تربط بين الماء والأرض والمرأة في طقوس الاستمطار:

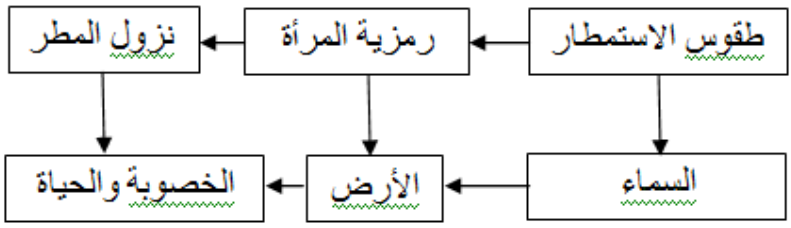

ISSN: 1112-7872
E-ISSN: 2600-6162
ص.ص 215 - 231

الشكل 1: يوضح العلاقة التي تربط بين الماء والأرض والمرأة في طقوس الاستمطار.

نجد أن الطقوس الإستمطارية تلعب دور مهم في الكشف عن رمزية الماء والأرض والمرأة في المخيال الشعبي لمنطقة الدراسة، وكذا علاقة هته العناصر ببعضها في الطقس الواحد، والمتمثل في الخصوبة بشكل أساسي.

الخاتمة:

من خلال تطرقنا إلى طقوس الاستمطار بالوصف والتحليل فان في ظاهرها عبارة عن طقوس شعبية راسخة في المخيال الشعبي بشكل اعتيادي، إلا أنها تحمل خزانا رمزيا في ذهنية أفراد المجتمع، لها دلالات وتمثلات مختلفة، تختلف باختلاف السلوكيات التعبيرية المشكلة للمخيال الشعبي ، فهو يلعب دور مهم في نقل الثقافة الشعبية، حيث يسعى إلى ترسيخ بعض المعتقدات التي تساعد على استمرار سلوكيات ينتجها المجتمع، فلا تخلوا الرموز في الثقافة الشعبية من بعد اعتقادي يحركه المخيال الشعبي.

فطلب المطر عندما يحل الجفاف بهذه الأشكال الشعبية، الفلكلورية الاحتفالية والتعبدية، تحمل خزانا رمزيا في مضمونها، مشحونا بالكثير من الدلالات من خلال العناصر المكونة للطقس، ونقصد الماء، الأرض والمرأة وحضورها مجتمعة في الطقس نفسه، ترمز كلها إلى الخصوبة والخلق والإنتاج.

ISSN: 1112-7872
E-ISSN: 2600-6162
ص.ص 215 - 231

* المراجع:

- إبراهيم الحيدري، (2003)،**النظام الأبوي وإشكالية الجنس عند العرب**، ط1، بيروت، دار الساقي.
- أحمد رشيدي صالح، (2002) **الأدب الشعبي**، ط1، القاهرة الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- فيليب سيرينج، (1992) ، **الرموز في الفن، الأديان، الحياة**، ط1، ترجمة، عبد الهادي عباس، سوريا، دار دمشق.
- حنان حمودا، (2016)، «الماء كمنشط أنثروبولوجي لإنتاج الطقوس بالمغرب»، **مجلة إضافات**، المغرب، العددين 34،33، ص. ص. 141ـ156.
- خولة الفرشيشي، (2018) «المرأة العربية وسلطة المجتمع الذكوري»، **مجلة المرأة العربية**، متوفر على الرابط: <http://meemmagazine.net>، (06:00/15.09.2018).
- محمد الجويلي، (2016)، «طقوس الاستمطار عادات تستدعى في مواسم الجفاف»، **جريدة العرب**، تونس عدد 10399.

للإحالة على هذا المقال:
ـ رزايقية فاطمة، بن معمر بوخضرة، (2020)، «الماء والأرض والمرأة ودلالات الخصوبة من خلال طقوس الاستمطار»، **المواقف**، المجلد: 16، العدد: 01 ، مارس 2020، ص. ص 215- 231.